طابع المدنية الحديثة

مدنية الفرد ومدنية الجماهير

يرى كل كتاب العصر الحديث الذين يجشمون مؤونة التفكير في تاريخ التقدم الانساني ان الشعب اليوناني القديم هو ارقى شعب اقلته الارض من حيث النضوج الفكري. فما من شيء أبتكر في العلوم ، وما من رأي ذاع في موضوع من موضوعات الفلسفة او نظرياتها او مذاهبها الكثيرة الاّ وتجد لهُ بداية في تاريخ الفكر اليوناني. حتى ذلك الشيء الذي يعدُّ من أكبر مفاخر القرن التاسع عشر ، ذلك الاسلوب اليقيني العلمي الذي ندّعي بان اوغست كونت اول من وضعهُ ، والحقيقة انهُ اول من شرحهُ ، تجدهُ جليًّا ظاهراً في مباحث ارسطوطاليس العلمية وفي مقدمات ثوسيديديس التاريخية . واي كبير فرق بين ما تجد في مقدمات ثوسيديديس و بين ما يدعو اليهِ اليوم اعلام السوربون في فرنسا من توخي الطريقة العلمية في بحث معضلات التاريخ ؟ بل اية ميزة يمتاز بها مباحثو العصر الحديث على ارسطوطاليس في طريقتهِ التي توخاها في شرح المنطق او التاريخ الطبيعي او الاخلاق ، وهي لا تؤمن الاّ بما يأتيها من طريق الحواس المستندة الى المشاهدة وصدق الاختبار ؟ لهذا يمضي كل الكتاب بلا شذوذ معتقدين ان الشعب اليوناني القديم هو ارقى شعوب الارض من الاسلاف الى خلائف القرن التاسع عشر

على هذا نستند اذا نحن مضينا في هذا البحث لنقرر بان الانسان لم يرتق منذ العصر اليوناني الاول حتى اليوم في الكفاءات العقلية . فالانسان في مدى خمسة وعشرين قرنًا من الزمان لا يزال يتطلع الى ارسطوطاليس وافلاطون وسقراط كاكبر العقول التي انبتتها الانسانية في كل عصور تاريخها . وفي ذلك بلاغ بيّن نستند اليهِ في ما نريد ان نذهب اليهِ في بحثنا هذا

على هذا الرأي ذاتهِ يمكنك ان تقف اذا انت اردت ان تنظر في رقي الانسان الاخلاقي . فان الامثال التي ضربها لنا بضعة افراد يجبهم الشعب اليوناني القديم لا تزال الامثال المحتذاة حتى اليوم في آداب السلوك . والسبب في هذا اننا لسنا باقل منهم معرفة بما يجب علينا من الآداب والاخلاق ، بل لاننا نعرف ولكنهم كانوا يعتقدون . كانوا ذوي يقين ثابت في ان الواجب يحتم عليهم اتباع سبيل الفضيلة عملاً لا قولاً . فهم الذين

نقدوا تعريف الاستاذ هكسلي في الدين قبل ان يأتي هكسلي الى عالم الوجود بخمسة وعشرين قرناً من الزمان ، هم الذين عرفوا ان « الدين هو اجلال المثل الاعلى من الاخلاق ومحبة العمل على تحقيقه في الحياة » كما يقول هكسلي استاذ القرن التاسع عشر . وهم الذين قال لهم شيخ فلاسفتهم الاخلاقيين ارسطوطاليس : « في الشؤون العملية ليس الغرض الحقيقي هو العلم نظرياً بالقواعد ، بل هو تطبيقها . فنيا يتعلق بالفضيلة لا يكفي ان يُعلم ما هي ، بل يلزم زيادةً على ذلك رياضة النفس على حيازتها واستعمالها . ولو كانت الخطب والكتب قادرة وحدها على ان تجعلنا اخياراً لاستحقت ، كما كان يقول تيوغنيس ، ان يطلبها كل الناس وان تشترى باغلى الاثمان . ولكن لسوء الحظ كل ما تستطيعهُ المبادئ في هذا الصدد هو ان تشدَّ عزم بعض فتيان كرام على الثبات في الخير ، وتجعل القلب الشريف بالفطرة صديقاً للفضيلة وفيّاً بعهدها » (١)

ومنذ ان افلت شمس إغريقية في آسيا وشرق اوربا حتى اليوم لا تجد من مثال تحتذيهِ الاَّ مثال ذلك الشعب المجيد الذي اورث الانسانية تراثاً من العلم والادب والفنون لا يفخر بهِ شعب دون شعب ولا قبيل دون قبيل ، بل هو مما يفخر بهِ الانسان على انهُ انسان ضرب للكون الخالد مثلاً ان في مستطاعهِ ان يبلغ من رقي النفس ومن انكار الذات حدَّ الآداب السقراطية الوضاحة في عصور المدنية اليونانية

فاذا تركت البحث في الاسباب الخفية الكامنة التي بزَّ بها الشعب اليوناني القديم شعوب الارض قاطبة لما استطعت ان تقع على شيء ينقع غلتك الاَّ ان تلجأ الى ما يقول بهِ علماء الوراثة من النشوئيين في هذا الزمان من ان السبب في هذا يرجع الى صفات تووارثت في هذا الشعب ثم نضب معينها شيئاً فشيئاً حتى تلاشت كوحدة خصَّ بها الشعب اليوناني وتوزعت على بقية الشعوب التي تخالط دمها بدم اليونانيين القدماء او كوراثة تظهر يوادرها من حين الى حين في بضعة أفراد ما يزالون حتى اليوم اينما ظهروا وحيثما كانوا موضع اجلال الانسانية وهداها في ظلمات هذا الوجود . ولكنك اذا لجأت الى البحث في الاسباب الظاهرة التي ميزت الشعب اليوناني القديم عن كل الشعوب بلا استثناء ، وعرجت في بحثك على علم الاجتماع الحديث امكنك ان تقع على سبب واضح جلي يوقفك على سر ما تريد ان تعرف من اسباب أزاء هذه المسألة التي تظلُّ في نظرك لغزاً وعراً ومعضلة

(١) عند مقدمة بارتلمي سانت هيلير في مقدمته لعلم الاخلاق الى نيقوماخوس من الطبعة العربية

معقدة ما دمت بعيداً عن النظر في اسبابها من ناحية اجتماعية صرفة . على اننا لا نريد ان نلفّ بالقارئ حول الموضوع فسار بين لهُ الامثال مبينين لهُ الاسباب لنخلص به الى النتيجة بل نذهب في بحثنا الى ضد هذه الطريقة لنقول لهُ ان الفرق ينحصر في ان الفردية الاستقلالية كانت في العصر اليوناني اقوى منها في كل عصور المدنية كما ان الاشتراكية الاجتماعية هي طابع هذا العصر الحديث ، وهي فوق ذلك نتيجة محتومة للطريق التي تمشت فيها الجماعات في الاعصر الحديثة

ان من اكبر الفضائل التي يحسد عليها القدماء وعلى الاخص الشعب اليوناني القديم هو بروز الذاتية الفردية واستقلالها فكراً وعملاً وبعدها عن التأثر بحياة الجماهير . لهذا نجد ان الفيلسوف منهم ظهر كفيلسوف علم على طريقة من الفلسفة ومضى ثابت اليقين فيما يوحي اليهِ بهِ عقلهُ وتملي عليهِ تصوراتهُ ولو ذاق الموت في سبيل مبدئهِ . الم يمت سقراط لانهُ مضى طوال حياتهِ يحاول ان يفهم الناس انهم جهلاء وان الدعوى والغرور اكبر مفاسد النفس واكبر برهان على الجهل المطبق ؟ الم تر كيف جلس ديوجينيس على باب الاكاذيمية لافلاطون مخفياً ديكاً عرّاهُ من ريشه حتى اذا عرّف افلاطون الانسان بأنهُ حيوان نبيل رمى بالديك الى وسط القاعة قائلاً «هذا انسان افلاطون» وافلاطون حينئذٍ ذلك الرجل العظيم الذي كان يبلغ حب تلاميذه لهُ مبلغ حب العباد الصالحين لمعبوداتهم غير المرئية ؟ وهل اتاك حديث ارسطوطاليس اذ ناقش استاذهُ افلاطون فاهانهُ بعض الطلبة فتركهم حتى اذا انتهز فرصة غيابهم كتب لهم على السبورة هذه الجملة « نحن نحب افلاطون ونحب الحق فاذا اختلفا فايهما اولى بالمحبة » . وهل عرفت حديث ديوجينيس اذ وقف ازاءهُ الاسكندر المقدوني وهو جالس بجوار بوميلر الذي كان يعيش فيهِ وسألهُ هل ترهبني ؟ فاجابهُ هل انت صالح ام شرير ؟ فاجابهُ بل صالح : قال وكيف اخافك وانت رجل صالح ؟ وسألهُ هل تريد مني شيئاً : فقال لا . بل تحول قليلاً لانك حلت بيني وبين الشمس . فهمّ بعض اتباع الاسكندر باذائهِ فانتهرهم الاسكندر قائلاً لو لم اكن الاسكندر لتمنيت ان اكون ديوجينيس

تظهرك هذه الامثال البسيطة على تكوين شخصياتهم الفردية وعلى ثبات عقائدهم التي ترضي عقولهم غير ناظرين الى ما يعتقدهُ غيرهم . وانت تعلم ان الكلبيين كانوا يعتقدون في انهم اكثر اهل الارض ثروة واعظمهم في الحطام جاهاً وهم بعد تلك الفئة التي

كانت تعيش عيش الفقر المدقع لتولاك شيء من العجب ولأخذتك نوبة من التفكير العميق. ولكنك لا تلبث ان تعرف تعريفهم الذي وضعوه للثروة حتى تقنع بانهم اسمى اهل الارض نفساً واعلاهم في المكارم كعباً وأسخاهم كفاً واندى العالمين بطون راح كما يقول شاعرنا العربي، وان كانوا اشد الناس فقراً واشدهم عدماً وامعنهم في الخصاصة. يقولون بان ثروة الانسان تنحصر في عدد الاشياء التي يستطيع الانسان ان يعيش بغير احتياج اليها. وهو تعريف فيه كثير من الحق الثابت. وهذه الفكرة على غرابتها وعلى بعدها عن المألوف في كل المدنيات لم تمش ولم يعتنقها افراد يتبعون احكامها نعلاً لا نظراً الا في بلاد اليونان القديمة. والسبب في هذا ان الشخصية الفردية لم تبلغ تمام تكوينها الا في ذلك العصر الذهبي بحق كما يقولون

لنقل لك بعض الاسباب الخفية التي كونت شخصيتهم الفردية في معتقد ثابت كانوا يمضون عليه ماكثين. كانوا يعتقدون بانهم ابناء آلهة تولاهم نزر من الفساد وانتابهم نصيب من الانحطاط. اما نحن في القرن العشرين فنعتقد باننا ابناء قردة آخذين في اسباب الشوه والارتقاء. وبمقدار ما نجد من الفرق بين المعتقدين، نجد التباين بين نزعاتنا ونزعاتهم وبين نظاماتنا التي نبنيت فيها الشخصيات الفردية في جوف الجماهير، وبين نظاماتهم التي نبنت فيها الجماهير في قوة الاستقلال الفردي. وعلى هذا نستطيع وبكثير من الحق ان نقول بأنهُ مدنيَّة اليونان القدماء هي مدنية الافراد، كما نستطيع وبكثير من الحق ان نقول ان مدنيتنا الحديثة هي مدنية الجماهير

قلّب نظرك في مختلف جهات المدنية الحديثة، واجل فكرك في نواحيها المشبعة ونظاماتها الكثيرة، فهي ايها تنفع على اثر الفرد المستقل بذاته وعقله بعيداً عن تأثير الجماهير؟ بل امضِ في بحث مستفيض لتقضيه في التأمل في تاريخ النظامات الاجتماعية اهلية وقضائية وحربية وغير ذلك، وقل بعدان تنظر فيها نظرة تأمل عميق اي منها لم تنقلب آيتهُ من العمل على حماية الفرد الى آلة تستعمل لقضاء مآرب الجماهير واشباع شهواتها الكثيرة

غريزة القتال من الغرائز الثابتة في الخلق الانساني، وهي كثيرها من الغرائز لها بداياتها في عالم الحيوان فهي من الصفات الموروثة فينا عن آبائنا الاولين - غير ان هذه الغريزة تكيفت في عدة وجوه انتقالية حتى اذا تكونت الامم في الاعصر القديمة على ان تكون امماً تسكن المدن وتجمع بين افرادها مصالح واحدة ونزعات ومشاعر واحدة، نشأت

مع ذلك فكرة تكوين جزء من سكان المدينة ليردوا عنها غارات اعدائها ويقومون حراساً على نظامها وعلى كيانها خوف ان تنتابهُ يد التخريب بطامع الفاتحين، الذين لم يكونوا ليفتحوا او يدوخوا بلاد غيرهم من الناس الاَّ ارضاء لنزوات غريزة القتال الموروثة فيهم كما حركتها عواملها الخفية . ولما ان ضرب الانسان بقدمهِ الثابتة في مدارج المدنية ، واتحدت القصائل الصغيرة فكونت جماعات كبرى ، حمس وحي الغريزة في ضمير كل فرد من افراد تلك الجماعات بانهُ ملزم بان يمدَّ يد الحب والعطف ، وبكل ما اوتي من غرائز والاجتماعية ، الى كل اعضاء الامة التي هو تابع لها ، ولو لم يكن على صلة بهم — كما يقول العلامة دارون ، ولما تكونت مصالح البشر على انهُ يعيشوا جماعات داخل مدائن العصور الاولى ، حمس وحي الغريزة فيهم ان يقاوموا غريزة القتال والفتح بغريزة الاحتفاظ بالنفس فتكونت الجيوش على ان تكون اداة لحماية الافراد ، ولم تقم من حرب هجومية الاَّ وكان اساسها تخيل الخطر واقعاً من ناحية ما ، كما حصل في كثير من عصور التاريخ . وعلى الضد من هذا نجد ان اكثر ما تكون الجيوش في العصور الحديثة واكثر ما تلمع حرابها في الافق او تبرق سيوفها في ظلام المدنية انما هو خدمة للجماهير ومصالحها الموهومة ، وللاعتداء على حرية الشعوب الاخرى اعتداء لا سبب لهُ الاَّ فتح اسواق جديدة لمتاجر ومصنوعات تزيد عن حاجة الجماهير التي تنتجها . واشد ما تكون اقتناعاً بهذا الرأي اذا انت علمت ان المنتج في العصر الحديث انما هي الجماهير التي تعيش متطفلة على رؤوس الاموال لا الافراد الذين استغلوا بعملهم استغلالاً يعود بو كل الربح الذي ينتج من عمل يدعم عليهم دون غيرهم

وضعت القوانين والنظامات القضائية في الازمان الماضية لحماية الفرد المستقل بذاتهِ عن التأثر بحياة الجماهير . اما قضاء عصرنا الحاضر ونظاماتهُ الكثيرة فلم توضع الاَّ لحماية شركات الاحتكار واصحاب رؤوس الاموال حماية لا خسران فيها الاَّ على الفرد وعلى استقلالهِ الذاتي . وما نظام النقابات الحديث الذي اوسعت لهُ القوانين صدرها في العصر الاخير الاَّ محنة جديد من محن المدنية ، وما تبدل القانون منها بشيء الاَّ الانتقال من حماية جماهير الشركات الى حماية جماهير العمال . فالنتيجة حماية الجماهير والقضاء على استقلال الفرد

ثم ارجع معي الى النظامات السياسية وقارن بين نظامات العصر القديم والعصر الحديث . قارن بين مشرّع وسياسيّ كسولون ، وهو رجل جمع بين العلم والحكمة وبين

العمل على رآسة الشعوب بما تمليهِ عليهِ حكمتهُ وما يوحي اليهِ بهِ عقلهُ، و بين سياسي انتهازي من سياسي العصر الحديث لا يهمهُ شيء في الوجود الاَّ ان يعلو منصة الحكم و يظل ما استطاع عاملاً على ان يحافظ عليها بكل طريق ممكن . ان سياسيَّ العصر الحديث لا يحتاج الى علم ولا الى حكمة اكثر من ان يقف موقف الجاهل القانع بان تسيّرهُ العناصر غير عالم الى اين تجتاحهُ ولا في اية مهواة سوف تلقي بهِ. هولا يريد أن يعلم من شيء ولا يهمهُ ان يعرف في العالم شيئاً الاَّ ان يدرس الحالات القائمة من حولهِ ليعرف من اين سوف تهب رياح الجماهير في الغد ليتقيها بما يستطيع ان يتقيها بهِ من كذب الى خداع الى مواربة الى قوة ان هيأت لهُ الظروف ان يقمع شهوة الجماهير بقوة سلاحهِ

لا يعلم سياسي العصر الحديث ان مهمتهُ الاولى ارشادية تعليمية ، ولا يعلم انهُ مسؤول عن مصالح الجماهير : ولا يفقه ان الجماهير لا تعقل بل تشعر ، ولا يعرف ان استقلال رأيهِ والتضحية بمصالحهِ اول ما يطلب منهُ كمرشد ومعلم معاً . لا يعرف شيئاً من هذا . هو بعيد عن حكمة الفلسفة ، بعيد عن ارشاد العلم ، فهو الجاهل بحق طبيعة ما عليهِ من المسؤولية

وهكذا الحال اذا ثبتت بقية نظامات الاجتماع على صورتها المدنية الحديثة ، مدنية الجماهير ، فانت تجد ان الفرد قد دالت دولتهُ لتقوم عليها دولة الجماعات المنظمة الخاضعة في نظامها لمجموعة من المبادئ الاستبدادية لا اثر لها في شيء الاَّ في القضاء على حرية الفرد، ذلك الميراث الذي ورثناهُ عن المدنيات القديمة ولم نحسن القوامة عليهِ

على أنك مهما فكرت ومهما اجهدت نفسك في البحث لا تستطيع ان تنظر في مستقبل الانسان نظرة يرضى عنها معتقدك العلمي ويطمئن اليها ضميرك كفرد لتقدس حرية نفسك وحرية غيرك ، الاَّ اذا تبدلت جماعات المدنية الحديثة في نظامها الحاضر السائدة فيهِ روح الجماهير بنظام يكفل حرية الفرد وينمي كفاياتهِ ومواهبهُ . على اني اكاد أتطير الى حد القول بأن الزمان الذي كان في مستطاعنا ان نرجع فيهِ عن استعباد الفرد لسلطة الجماهير قد انقضى امره . وكما بدأ انحطاط زرادشترا عندنشه بهبوطهِ من الجبل الموحش الى عالم المدنية الانسانية ، كذلك اعتقد ان انقلاب الحال من استقلال الفرد في المدنية القديمة الى استبداد الجماهير في النظام أول مدرج سوف تنزلق من فوقهِ قدم المدنية الى مهاوي الفساد والسقوط

اسماعيل مظهر